الأحـــــــــــد 01-08-2010

1066-إبـــداع الحيـــاة ضـــد: الميوعـــة والحـل الوسـط

تعتعة الوفد

يستعمل لفظ الإبداع بين المثقفين والنقاد وأحيانا الفلاسفة والعلماء ليعنى مضمونا محدودا، إلا أننى تعلمت من الممارسة العملية عامة ومن العلاج الجمعى خاصة عبر عشرات السنين لمواطنين أميين أو يقرأون بالكاد فى مستشفيات طب قصر العينى، أن حركية الإبداع هى أشمل وأرحب من هذا التحديد القاصر، كما أننى اهتديت فى أطروحتى عن الإيقاع الحيوى ونبض الإبداع (مجلة فصول، سنة 1985) أن الحلم المحكى هو إبداع (تأليف) أى واحد منا قبيل يقظته، الإبداع هو قضية حيوية أساسية مسئولة عن تطور الأحياء من جهة وعن استمرار مسيرة الإنسان تأكيدا للبقاء على درب التطور من جهة أخرى.

الإبداع هو إعادة تشكيل المعطيات القائمة من برامج بيولوجيه ومعلومات حية متنوعة، لتخليق تركيب مختلف نوعيا وأعلى تطوريا، هذه العملية تتم باحتواء التناقضات بكفاءة خلاقة بمجرد الوجود أحياء، صحيح أنها تحدث فى الشخص العادى بنسبة لا تكاد ترصد فى الوعى الظاهر، لكنها جارية بطبيعة ما خلقه الله فينا عبر مسيرة التطور.

الذى حدث ضمن تشويه معظم المفاهيم الإنسانية العظيمة لخدمة أغراض سلطوية تدهورية هو أن هذا المفهوم ذاته - الإبداع- قد استولى عليه أعداؤه مثلما استولوا على مفهوم "الحرية" و"العدل" و"حقوق الإنسان"، وأصبحوا يسّوقونه لصالح أغراضهم المالية والتراكمية والسلطوية والجشعية الآكلة للحوم البشر، فأخذت هِذه القوى تروّج تحت عناوين براقه مثل "التنوع البشرى الخلاق"، و"الفوضى الخلاقة"، وبدلا من العمل معاً على فهم النقلة الواعدة لمسيرة الانسان المعاصر، يجرى تسويق نوع من التوفيقات والترضيات وطمس معالم المتناقضات التى هى ذخيره الابداع، يتم ذلك بخبث غبى لمصلحة هذه القوى الخادمة للانقراض بعمًى مطلق.

حقيقة ما يجرى من خلال سيطرة هذه القوى لا يحفز تفاعل البشر، سائر البشر، من مختلف الأديان والأجناس والأصول تحت مظلة عدل الرحمن نحو الانسان الجديد. المطروح على الساحة

العالمية ليست دعوة حقيقية لاحتواء التناقض بين البشر الحقيقيين حتى يثرى بعضهم بعضا، وإنما المطروح هو شعارات فارغة تصب فى مصلحة المافيا الظاهرة والخفية، لتحقيق التكاثر والتراكم والاستعمال والاستغلال.

يتم التعامل – بخبث سلطوى بشع- مع الاختلافات البشرية، والصراعات السياسية بترجيح سبل تقتل الإبداع وهم يزعمون أنهم يحاولون احتواء التناقض، التوفيق ومن ذلك:

الميوعة، هى نوع من التراخى والتغاضى والإغفال الظاهر والباطن لحقيقة صراع البقاء الرائع الحافز للإبداع، خذ مثلا كل الجارى على الساحة السياسية فى قضية التهام فلسطين واستغلال الفلسطنيين وتشريدهم بشرعية مزعومة تدعيها أمنا الغولة المسماة إسرائيل، لاشىء مما يجرى من هذه القضية مثلا له علاقة بالعدل أو التطور أو الإبداع أو الله سبحانه، كل الجارى هو تأجيل فتأجيل فتأجيل (ميوعة) ووعود فوعود فتلويح بوعود (ميوعة) وتهميش وإحلال الثانوى محل الرئيسى حتى تغيب عن بؤرة وعينا أصلا المسألة الأساسية المدفونه تحت أكوام الهلاميه والميوعة، الاكتفاء بالحديث عن المعونات والأغطية والستر، يزيد الأمور ارتخاء وليونة بحيث لا يعود فى الإمكان الامساك القابض على القضية الرئيسية، قضية الاحتلال وحق الاستقلال، ورفض التطفيش العرقى وربما التطهير العرقى إن أمكن.

المفهوم الثانى الخبيث للتعامل مع الاختلافات والتناقض يسمى أحيانا **"التسوية"**، وأحيانا **"الحل الوسط"**، وقد بلغ من فرط انزعاجى من الخلط بين هذا المفهوم، وبين مفهوم الإبداع المحتوى فعلا للتناقض أن أصبحت أحذر من الحل الوسط أكثر من حذرى من القهر الصريح أو الهجوم المعلن للإبادة.

أكبر مثال على ما يسمى "الحلوسط" (إضغام مقصود)، هو ما يجرى على موائد المفاوضات العربية الإسرائيلية والوسائطية طول الوقت، صحيح أنه لا سبيل إلى التفاهم المؤقت والتعايش المرحلى إلا بلقاء المتنازعين أملا فى ترضية ما، يدفع فيها الضعيف ثمنا غاليا تحت كذبة كبيرة لها اسم براق (اتفاقية/ معاهدة/ ورقة تفاهم...الخ)، لكن ينبغى أن يظل وعى أضعف الطرفين حادا منتبها طول الوقت أن المسألة لا تنتهى بمجرد التوصل إلى هذا "الحلوسط"، معاهدة السلام المصرية مثلا ليست إلا حلا وسطا مائلا، المفروض أن يكون مرحليا إلى أن نستعيد أنفسنا ونحسم أمرنا: إما أننا نستحق الحياه أو لا نستحقها، قد تكون المعاهدة ضرورة مرحلية، لكن أن تنقلب غاية المراد وقدر العباد المستضعفين المهزومين فكلا وألف كلا.

الميوعة والتسوية والحل الوسط سادت كل حياتنا حتى أصبحت وكأنها القاعدة، المسائل كلها أصبحت تبدو باهته فاترة بلا معالم، حتى الاسلام العظيم يفرح أغلب أهله وهم يروجون لسماحته واعتداله بأنه "الحل الوسط"، وهم يصورونه على

أنـه ديـن الاعتدال والحلول الـنصف نصف بـتفسيرهم المسطح لما هو "أمـة وسطا"، دون أن يـدركوا الـفرق بين الاعتدال واحترام الاختلاف مع الحفاظ على حركـية الحوار سعيا إلى وجه الحق، إن الاستشهاد بـالآية الـكريمة "وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا"، ثم الـتوقف عند ذلك هو الـذى ظلم حركـية الاسلام كدحا إلى وجه الحق، بـرغم حبى الـشديـد لابـداع تـوفـيق الحكيم مسرحا وروائـيا ومبدعا إلا أننى تحفظت حتى الـرفض على محاولـته اختزال الاسلام إلى "فـلسفـة الـتعادلـية" والـعياذ بـالله. أنـا أقـرأ هذه الآيـة "وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا" بـأن استلهم مضمون لـفظ الـشهادة بـالـرجوع إلى أصل الاسلام الحنيف بـأنـه بنى على شهادة "أن لا إلـه إلا الله" ولـيس على الاعتقـاد أو الاقتنـاع تـفكيرا بـأن الله واحد، "الـشهادة" هى حضور إدراكى مـتكامل بـالـفكر والـوجدان والجسد والحدس والخيـال، إن ركن الاسلام الأول هو أن تـتفتح مسام وجود المسلم كلها لـتصلها حقيقـة الـتوحيد واقعا حيويـا عبر الـتنـاغم مع مستويـات وعيه إلى وجه الـعدل تعالى، هذا ابـداع يمارسه بـاستمرار كل مسلم مؤمن، وهو ما يـتجلى فى عقيدة المسلم من خلال أن يكون أحد افـراد أمة سمح لها إيمانها المتفتح بـتلقى رسائل الـوجود عبر كل قنوات الـتواصل، وحين تـكون أحد أفـراد هذه الأمة فـأنت تشهد بـذلك على الـنـاس ويشهد عليها نـبيها صلى الله عليه وسلم، لـصالح ابـداع كل الـنـاس إلى الـعدل تعالى، الأمة الـوسط لا تـكون كذلك إلا بـأن يـكون أفـرادها "شهداء على الـنـاس" بما ذكرنـا. إن اختصار الاسلام إلى مفهوم الحل الـوسط والميوعة والـتسوية هو تـقـزيم لـديـن عظيم مفـروض أن تـتسع رحابـته لـكل الـنـاس مهما كانت عقـائـدهم.

فى حياتـنـا الـيومية المعاصرة (فى مصر الآن) تجلى إشلال ما يـسمى الميوعة بـالحل الـوسط فى موقف الحكومة إزاء قضايـا عملـية ملـحة..

سوف اكتفـى الآن بـأن أقدم مثـالـين فقط فى صورة لـعبة تسمى "**نـعم**"....و"**لـكن**".... حيث يـنفـى ما يجىء بعد "**لـكن**" ما جاء قبلـها بـــ "**نـعم**": فتضييع الـقضية ميوعة بلا معنى الأمثلة:

1- "**نـعم**": الـديمقـراطية أحسن الحلول فعلا،

و"**لـكن**" لا يـنبغى أن نـترك الحبل على غاربـه لـلمهرجين بلا بـرامج، ولا قـواعد، ولا شكل، ولا معنى.

2- "**نـعم**" لا بـد من تـداول الـسلطة

و"**لـكن**" من يـدرى ما ذا سوف يحدث لـلاستقـرار الـذى نـنعم بـه تحت هذه الـسلطة الحالـية.

وهكذا

وإلى المقـال الـقـادم لـتقـديم مزيـد من الأمثـلة وأيضا لـتقـديم الجانـب الآخر من المسألـة.